الفصل العشرون

العقـــائد فى حرب

(١٥٢٥ ــ ١٥٦٠)

١ ــ التقدم البروتستانتى ١٥٢٥ ــ ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليـــدة من أن تعيش فى مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية ؟ إن الورع الصوفى والدراسات الإنجيلية والإصلاح الدينى والتطور الفكرى وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هى التى كانت حاسمة : الرغبة فى الحفاظ على الثورة فى ألمانيا ، والرغبة فى تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالى ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والماليـــة للأمراء والمدن والحكومات . أضف إلى هذا بعض الظروف السياسية التى سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت فى مد رقعتها بدرجة خطرة فى بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط فى وجه تجارة العالم المسيحى ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند فى حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا ــ أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء ــ لمقاومة هذا التهديد الإسلامى ، الذى يوشك أن يكتسح أمامه كل شىء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهمكاً فى صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية فى ألمانيا . واتفق فى الرأى مع أرازموس ، الذى كان يحصل منه على معاش ، فى أن الكنيسة فى حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان فى فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسماح لجيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربةالثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « الهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين فى نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون فى أسى «إنهم لا يبالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملاك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشراف الأساقفة »(١) . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة(٢) ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة فى دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففى ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ فى فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكى ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس فى المدينة تناول العشاء الربانى بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالى ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كابيتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذى خلفه هناك فى أولم على اعتناق الدين الجديد أيضا . وفى نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شبينجلر وهيرونيموس باومجيرتنر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التى تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظنا بضهما الكاثوليكى . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً فى برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بفقرات منها ، وفى نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين بألا يرددوا فى عظاتهم إلا ما وجد فى نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكلا الشكلين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترالزوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية فى سوابيا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام فى أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترالزوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالربح ، فى عقول الناس .

وليس من شك فى أن الأمراء الذين تبنوا باغتباط القانون الرومانى ، الذى يجعل الحاكم الزمنى قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة » ، قد رأوا فى البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تمتثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح فى وسعهم وقتذاك أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذى خلف فردريك الحكيم كأمير مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعله فردريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فردريك أبقى البروتستانتية موطدة فى سكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط فى سلك اللوثرية أمراء آخرون : أرست اللونبرجى ، وأوتو وفرانسس أمير برونزفيك لونبرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان التيوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلى عن عهوده الرهبانية ، وتزوج وخصص الأراضى التى تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقا على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا .

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقى منهم ، فإن الأمراء اللوثريين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة فى أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيـدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتقاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض فى تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدينية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالتهور على مبانى الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتفريج عن الفقراء ، أما الباقى فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانكتون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب»(٣) . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر ، لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكملها — إيست فريزلاند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين — البروتستانتية بالإجماع تقريباً ، ولا شىء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خير من هذا . وحيثما بقى القساوسة استمروا فى تأييدهم لاتخاذ حظايا (٤) ، ورفعوا عقائرهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر(٥) . وأبلغ الأرشيدوق فرديناند البابا بأن الرغبة فى الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكاثالكة من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية(٦) . وشكا كاثوليكى مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا فى إقامة الولائم الفخمة(٧) ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكى ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقق الفاخرة الأثاث التى استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »(٨) . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسس العداء ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا »(٩) ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس فى كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »(١٠) . ومهما يكن من أمر، فقد كان هذا صحيحاً فى شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجى على أن يظلا كاثوليكيين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا فى معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرحة الملونة التى تنحو نحو التساهل فى المسائل الجنسية ، والتى تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فاسفة الرواقية التى تقول بالجبر ، وتسود فى الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء فى ماينز وتريير وفى كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية فى بلادهم ، وأنقذ البابا أرديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة فى ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند فى النمسا .

ودخلت هنغاريا إلى المسرح بصورة جوهرية . وكان ارتقاء لويس الثانى للعرش قبل الأوان ، وهو فى العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً فى سن مبكرة ، من العوامل التى أسهمت فى تكوين المأساة الهنغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء فى ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافئة للحيوانات التى كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة . وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيما رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارده الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات . وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجدعوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده(١١) . فما كان من السلطان الحانق إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجبنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف فى بطولة متهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركى فى ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر الملكى ، وأشعل النيران فى الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر فى النصف الشرقى من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحى إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العداء ، ورات جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له سليمان أن يحكم فى بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقى من هنغاريا فقد ظل فى الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء فى بوهيميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأمل ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلا من

بودا على طول نهـــر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن فى خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها فى أيدى الإسلام ، وليس من شك فى أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسى كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان فى اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكثالكة والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد فى صراع من أجل روح ألمانيا .

٢ ـ مجالس الدايت لا توافق

(١٥٢٦ ـ ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجى ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، فى انقسام طائفى ، يبدو أنه كان كامناً فى مبادئ الحكم الفردى وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الرؤوس تقريباً »(١٢) . وشغل ميلانكتون نفسه فى حزن بالتخفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتباط إلى الأحزاب البروتستانتية ، التى تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقى ، وشكية بغيضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء(١٣) ؛ وفى عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً فى القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التى مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع فى سبيير (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابى من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأى فى المطالب التى تقدم بها الكاثوليك ، ومؤداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر فى الاقتراح المضاد الذى

تقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى فى النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابى فى الختام — وهو معلق على مجلس مثل هذا — بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التى يعتقد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك فى موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها فى شئون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير فى إقليمه ، وحرم إقامة القداس فى المناطق التى تدين بمذهب لوثر . ورفض الكاثلكة التسليم بهذه الدعاوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشئون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أى جهد فعال للمقاومة .

وبعد أن حقق شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التى فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابى فى سبير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذى تولى رئاسته ، والإمبراطور الذى تغيب عن الحضور بإلغاء « المرسوم » الذى وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضى بالتسامح فى أداء الصلوات الكاثوليكية ، فى الولايات التى تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الوعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه فى الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجلية واللامعمدانية فى كل مكان خارجة على القانون . وفى يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً Protest » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتمسوا من الإمبراطور عقد مجلس عام . وفى الوقت

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتمسك بمرسوم سبيير الأصلى بأى ثمن . وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيه عام ١٥٣٠) برئاسته . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان وقتذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة أدخل المصرفى السرور على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر فيها الإمبراطور بمد يونيته(١٤) ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ، فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقترب بها من البابوية . ولم يحضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ، ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، ولكنه ذهب إلى كوبورج الواقعة على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانتى عن طريق الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنحتها ، وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكا من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا»(١٥) . وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيه التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان باير الإمبراطور وبجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان ميلانكتون قد أعده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكي) «لهجة مشرفة معتدلة مسالمة»[١٦]. وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثريين، وأفاض في الهرطقات التي أدانها الإنجيليون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأناجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء، وفرق بين الإصلاح اللوثري والإصلاح الزونجلي، وترك الأخير يتحايل لنفسه. وخفف من العقائد التي تقول بالجبر و «التجسيد» والتزكية بالإيمان، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين، التي كانت البروتستانتية قد قللت منها، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس في كل من الشكلين، وعن التحلل من عهود الرهبانية، وعن زواج رجال الدين، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن، كما دبجه به. وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل، ولكنه أعرب عن رضاه، الذي لم يكن منه مفر، عن هذه الوثيقة، وأرسل زونجلي تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح بجسده في القربان المقدس، وقدمت ستراسبورج وكونستانس وليندا وممنجن إقراراً منفصلا هو: Tetra Politana، وفيه جاهد كابيتو وبوسر. لسد الثغرات، التي بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية.

ورد الحزب المتطرف من الكاثوليك الذي يتزعمه إيك رداً مدعماً بالبراهين، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور، حتى خففت لهجته مرتين. وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقديسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب.

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والنبيذ . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعى والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا فى الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدى إلى إخضاع القسس الجدد للدرجات الكهنوتية فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الدينى فى أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم .

وفى التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابى ، الذى كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائى أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية ، ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطورى أن يبدأ فى اتخاذ الإجراءات القانونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهى فى ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطورى ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكى يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابى ، ذروة التعقل ، وفى خلال تلك الفترة عرض عليهم الإعفاء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يقدم ، إذا سمحت واجبات أخرى ، القواعد المتناظرة فى علم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليـــا .

وبينما كان المجلس النيابى فى دورة انعقاده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التقليدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشمالكالدى ، الذى اتخذ اسمه من موطنه الأصلى بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفو ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ؛ ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لهجوم آخر على فينا ، كما أن باربا روسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا — وهو حليف سليمان أيضاً — كان يتأهب للانقضاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلا من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ، فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نوزمبرج (٢٣ يوليه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دينى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ، ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية ، فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بخمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت ، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم »(١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعندما عرض إليانذر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثريين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتثال لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الهسى العون الفرنسى ، لكى يستعيد الدوق أولريخ البروتستانتى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها(١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولا فى الشرق ، وشارل منهمكاً فى الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمدانيين يدعمون ثورة شيوعية فى منستر . واستولى المتطرفون فى يورجن فولنفيفر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك فى ذلك الوقت فى حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه فى حربهم ضد العثمانيين ، وفضلا عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما فى هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشد التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالكالدى بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعندما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط ، التى يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجاب بأنه لن يعترف إلا بمجلس ينعقد مستقلا عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزمنيين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشتركوا فيه على قدم المساواة[١٩] ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطورى ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك فى الاحتفاظ بأملاك الكنيسة : أو بحقهم فى القيام بالعبادة وفق شعائرهم فى أراضى الأمراء البروتستانت[٢٠] . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حلفها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطورى ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خوفه من أن يطعنه فرانسيس الأول فى ظهره جعله فى حرج .

واستمر المد البروتستانتى يتعاظم ، ويقول مؤرخ كاثوليكى : « فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب ألياندر إلى البابا من مدينة لينز يقول إن الحالة الدينية فى ألمانيا منهارة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومناولة القربان . وكان الأمراء الزمنيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يمقتون نظام القساوسة مقتاً بالغاً ، ويطمعون فى أملاك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعيشون فى بذخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل ، إلى حد أن بعض الكثالكة أعرضوا عنهم »(٢١) .

وعند ما توفى الدوق الكاثوليكى جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بدوره هنرى وكان المنقذ العسكرى للبروتستانتية فى ألمانيا . وفى عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثانى الأمير المختار فى برانلنبورج كنيسة بروتستانتية فى عاصمته برلين معتزاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفى عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفس وأسقفية نارمبورج بل وكرسى أسقفية ألبرخت فى هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل فى حينه . وفى عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد ، كبير أساقفة كولون وأميرها المختار ، روما بتحوله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا فى يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلى الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . ولن يتم ذلك إلا باعتناقهم العقيدة الطاهرة ، التى وردت فى إقرار أوجسبورج ، واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتنقه من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معاملته باعتباره ظالماً متعسفاً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه فى ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان »(٢٢) .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا فى أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا إلى الاجتماع فى « ندوة مسيحية » ، ليبحثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم . وكتب قاضيه رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حاسمة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسقط فى براثن البروتستانت » . وفى مؤتمر تمهيدى بورمس دار

جدال طويل بين إيك وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل التفاهم ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التى تدل على رحابة الصدر ، والتى صيغت فى إقرار أوجسبورج(٢٣) ، وتشجع شارل فاستدعى جماعتين إلى راتيسبون (رجنزبورج) ، وهناك عقدا اجتماعا تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) ، وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبيه الكاردينال جاسبارو كونتارينى رجلا حسن النية وعلى خلق رفيع . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه ، ولهذا كان تواقاً جداً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا فى أن له ميولا بروتستانتية . وتلاقت آراء المشتركين فى المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبين المعروفين ، ولكن ما كان لأى شعوذة أن تجد فى الحال صيغة تؤكد وتنفى فى الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد فى القربان المقدس ، ولم يجد كونتارينى تفكهة فى سؤال وجهه إليه بروتستانتى عما إذا كان الفأر الذى يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب(٢٤) ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقوتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أى إجراء ضدهم لتمسكهم بالعقائد المنصوص عليها فى إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأملاك الكنيسة المصادرة » .

وفى خلال هذه السنوات التى اشتد فيها الجدال وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلا قد ناضل فى سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التى عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفى عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً لجميع الكنائس الواقعة فى دائرة دوقيته بأداء الصلاة وفق المذهب الإنجيلى ، كما صاغه ميلانكتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الإمتثال لهذا الأمر من القساوسة يفقد مستحقاته ، ويُنفى العلمانيون المتشبثون بآرائهم بعد فترة يمهلون فيها(٢٥) . وحذا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلا . وكتب لوثر فى خمس صفحات Kleiner Katechismus ، ويتألف من الوصايا العشر ، التى وردت فى عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة لكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان القساوسة الجدد بوجه عام رجالا يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين فى الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع فى علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم فى أبرشياتهم . وروعيت إقامة الصلوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد فى الكتاب المقدس ؛ واحتفظت « عبادة الرب » بكثير من شعائر الكاثوليك — المذبح والصليب والشموع والثياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، ولكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتلعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صلوات تقام للعذراء والقديسين ، ونبذت الصور والتماثيل الدينية ، وتحولت عمارة الكنيسة ، بحيث تتيح للعابدين سماع الواعظ بسهولة ؛ وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً فى الكنائس البروتستانتية . ومن أجل ما استحدث المشاركة الفعلية لجماعة المصلين فى عزف الموسيقى ، التى تصحب أداء الشعيرة ؛ فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك فى التراتيل ، وفى وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه فى شغف ؛ دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد فى هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين حشية وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، يتخللها الحوار ؛ وتثير الإلهام ، وتتسم

بالقوة والجزالة ، وتنبض بالرجولة ، التى تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بترتيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها فى غضون الأسبوع ، ورتلتها عائلات كثيرة فى البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجتها من دينها) أكثر مما فعلت عظاته »(٢٦) ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكى فى عصر النهضة .

٣ — أسد فيتنبرج ١٥٣٦ — ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة فى المؤتمرات السلمية فى سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ؛ لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العقيدة والشعيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم فى السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوى عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلى هو هل سمعت الخبر ، الذى يتردد فى إيطاليا ، وهو أنى سكير ألمانى)(٢٧) ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض — سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات فى الكليتين ودمامل فى الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النسا وخفقان فى القلب . واعتاد أن يجرع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، وخيل إليه فى عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرنى أكثر من هذا فإنى سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك »(٢٨) . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشىء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصدقاؤه عنه ، يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريديه فى حزن : « كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقتصاصه منه عاناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألماً ، لكثرة ما يلقى من إذلال على يد صنمه ، الذى صنعه دون أن يصقله ، ومما يؤثر عن لوثر أنه قال أما أوكيولامباديوس وكالفن . . . والخراطقة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان احتواهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم ألسنة لا تنطق إلا كذباً »(٢٩) .

وانكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال فى رسالته « عن المجالس والكنائس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجلس عام أكثر من مرة بإثارة حفيظة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحة ، وذلك بصورة تنم على علم غزير ، وسجل أن عدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة — وفى هذا تلميح لشارل ، وأعرب عن شكه فى أن يقوم أى مجلس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح المحكمة الرومانية ، وقبل إقرار حضور البروتستانت فى مجلس للكنيسة « يجب أولا أن ندين أستقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه »(٣٠) .

وتوحى آراؤه السياسية فى السنوات الأخيرة من عمره بأن السكوت من ذهب حتماً بعد سن الستين . وقد كان طوال حياته من المحافظين فى السياسة ، حتى عندما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية ، فقد اعترض على الثمن الفادح الذى يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبداد البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد فى مسيحية المحافظين — الثالوث وولادة العذراء والتكفير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس

والجحيم — وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة فى نظر الناس أكثر من ذى قبل . وكان يزدرى العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير فى عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد « الجمهور » فى حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الهمجية من عقالها ، ويتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتقد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة »(٣١) ، ولكن عند ما تفقد حكومة المسبحات سلطانها ، فمن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لزاماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سلطة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهى للملوك ، وفى هذا يقول : « إن اليد التى تدير السيف الدنيوى ليست يداً بشرية وإنما هى يد الرب . والرب(٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذى يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرءوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذى يشهر الحرب » . وفى هذا التمجيد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بذور فلسفات هوبز وهيجل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنرى الرابع فى لوثر ما يؤيد إحضار هيلدبراند إلى مدينة كانوسا .

وعند ما تقدم لوثر فى السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم ، وأقر الإكراه البدنى على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعند ما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة ، إذا لم تفرض على العامة ، فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم ، إلى حد لا يطاق(٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق « الأغنام والماشية والعبيد والجوارى كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخير لو ظل هذا معمولا به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبيعة الرقيق على العمل ، أو بروضها عليه »(٣٤) . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه فى جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه » ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضيعة وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة لمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب الهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلا حى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (السافوية) ، امرأة تفتقر إلى الوسامة ، ولكنها مخلصة ولود . وتردد فيليب فى أن يطلق زوجة كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقبها ، وهو فى طور النقاهة من مرض الزهرى(٣٥) ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جد مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد ، الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلا عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لياقة مما أقدم عليه فرانسس الأول ، من أن يرث العشيقات ، وأكثر شفقة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعلن أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فيتنبرج أن يتبينوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استعداد . والحق أنه كان قد فصل فى رسالته « الأسر البابيلونى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن(٣٦) . وكان الكثيرون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر(٣٧) ، أما ميلانكتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعربا عن موافقتهما ، ولكن يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بلدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذى قبل »(٣٨) . وفى يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سراً ، من مرجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللاندجراف المعترف باليحميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربة من النبيذ على سبيل الهبة(٣٩) . وعندما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقته ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سراً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح »(٤٠) .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعانى من وخز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران(٤١) وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإنى ساكسونى صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدى غلظة إلى درجة تجعلنى أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور »(٤٢) . ومهما يكن من أمر فإن معظم الإنجيليين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر فى السماح لهنرى الثامن بالزواج مرة أخرى(٤٣) . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة الجديدة ، فإنه أصبح الآن يمقتها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فيليب تعهداً بتأييده فى جميع الانقسامات السياسية فى المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر نارى الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم فى عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلى بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

فى الجنوب والبروتستانت فى الشمال . وعند ما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشتراك فى مجلس يديره البابا مباشرة ، دبج لوثر خطاباً مقذعاً بعنوان : « ضد البابوية فى روما التى أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التى جاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كراناش ، الذى زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوى على هجاء مقذع ، فأحدها يصور البابا ممتطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه داو « بجامع قمامة » وألهبت كملة « شيطان » نص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمى » و « هذا الخنثى الرومانى » و « البابا السدومى » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحمير الجهلة . . . لكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبيدهم ، وأن يحرقوا فى نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاسقربوط والجذام والجمرة وسائر الأمراض[٤٤] . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكى تبتلع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدى العاطلة . خذوا من بابا روما ، أولا وقبل كل شىء ، رومانيا وأوربينو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، فى غير ما خجل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تحصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادلته وكل طغمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أقفيتهم ، وشد وثاقهم فى صفوف على المشانق(٤٥) .

ولعل الضعف قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجى للأعضاء الداخلية ، بمرور الرقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر فى سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، يخدين متهدلين وذقن ملتوٍ . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيبنى الوهن »(٤٦) ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكترث لشىء ، ليس له عين سليمة »(٤٧) . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هى منى »(٤٨) وعندما تمنت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى : إنى لأتنازل عن فرصتى فى دخول الجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى »(٤٩) . وقال « إنى لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنقى ويدوى الرعد وأرقد فى سلام »(٥٠) . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . وتراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على بالاعتراض بأن لسانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلا من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركنى فى حيرة شديدة »(٥١) . وكان فى بعض الأحايين يتملكه اليأس من مستقبل البروتستانتية : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب(٥٢) تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و« بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها »(٥٣) على العقيدة الجديدة . ولكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان ، ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نفسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى يهصر هصراً ، فإنى لا أبالى بهذا الأمر ، ولسوف يكابد المسيح ما كابدت »(٥٤) .

وبدأ وصيته بحروف كبيرة، بقوله : « إنى معروف تماماً فى السماء وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن « آثماً تعساً يستحق اللعنة ، لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ، أستاذاً للحق ، يزدرى الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة : « ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ، وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتن لوثر موثق الرب وشاهد إنجيله »(٥٥) ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مسقط رأسه أيسليبين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغيبه هناك برسائل شائقة إلى زوجته — منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كاتى لقد كنت عليلا وأنا فى الطريق إلى أيسليبين ، ولكن هذا إنما يرجع إلى خطئى ، فقد هبت ريح صرصر عاتية من خلفى ، واخترقت قلنسوتى فوق رأسى ، فشعرت بأن مخى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حرياً بأن يعينى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، ولله الحمد ، بصحة جيدة ، إلى الحد الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الجميلات من النساء ، فما بالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله(٥٦) .

وتناول عشاءه يوم ١٧ فبراير فى مرح ، وفى الصباح المبكر من اليوم التالى سقط مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن جسده بسرعة ، وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمعوا إلى جانب فراشه ، أنه يحتضر وسأله أحدهم « أيها الأب الجليل هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعقيدة

التى بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلا « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن فى كنيسة القصر ، التى كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات فى التاريخ . وكان لوثر صوتها المدوى الذى يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخى ، الذى لعبته الكنيسة فى نشر المدنية بأوربا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجد فيها العزاء والسلوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل فى معاملته مع خصومه من الكاثوليك و البروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا مصعوم من الخطأ ، ولكن فى الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً فى ديانة القرون الوسطى . وهى عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما فى تلك الديانة من جمال تقريباً فى أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهى أقل منها بهجة وساواناً ، وإن كانت أكثر صدقاً وأشد إخلاصاً فى القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح فى تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ فى تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بفطرته محباً للحرب ، لأن الوقت كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التى هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلة . وقضى طوال حياته فى معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلى ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويحولوها إلى احتجاج مهذب ، يسمعه الناس فى سماحة ، ثم يضيع فى غمرات النسيان . وماذا كان فى وسع رجل أرحب منه صدراً أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك فى أنه ليس فى وسع رجل متضلع فى الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشىء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرأفة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة فى عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر فى قلوب الناس بهذه اللاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق فى وجه حركة الفكر الأوروبى . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ — وهذا أقل اختبار موضوعى فى وسعنا أن نلجأ إليه — فإننا نستطيع أن نضع لوثر فى مصاف كوبرنيقوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت فى فى العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر فى العصر الحديث باستثناء شاكسبير ونابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية **fideism** كانت وقومية فيخته ومذهب شوبنهاور فى الإرادة واستسلام الروح الهيجلى للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألمانى واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملا ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب فى انجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألمانى آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكارلشتادت وآخرون فى خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتنصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه فى الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهبانى ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا فى اسكنديناوه ، وعابرا فى فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن فى سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما فى ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق فى العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية فى تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جماً ، لأنه كان أشدهم جميعا تعصباً لألمانيته .

٤ ــ انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ ــ ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التى لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية فى ألمانيا .

وفى عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذى لقى العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبى . وعقد سليمان ، وكان فى حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعد البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٫١٠٠٫٠٠٠ دوكات و ١٢٫٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهراطقة . . . وأحس شارل بأن فى وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم فى رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق فى ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت فى الاستهانة بسلطانه وعجز أن يملى عليهم الشروط التى يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلا أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتحالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقذعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان(٥٧) — كان فى وسعه أن يتحمل هذا فى صمت كئيب — أما الآن فإنه حر فى أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضى ، وأن يصوغ مملكته ، التى مزقتها الفوضى ، فى دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد فى مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعند ما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلا بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفى أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكرى فى ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالى له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده فى هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولاندجراف فيليب الهسى ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصفى أراضيهما وأموالهما . ولكى يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل فى شئون البروتستانتية فى أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلا لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعد صدر له بأن يحل محل جون كأمير مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، فى كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتى فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسى وأمراء أنهالت وحكام مدن أولجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يتهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أموالهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا فى ميدان القتال ٥٧,٠٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل ، سار فرديناند شمالا وغرباً للاستيلاء على دوقية جون ، وانضم إليه موريس فى فى غزو ساكسونيا الأرنستية ، لكى يساعد بشىء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته ، وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن فى غضون ذلك بدأ جنود فيليب فى الفرار من فرقهم ، بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية تنشد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل فى المعاملة ، ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة ، حطمت العمود الفقرى لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها ، وكان شارل وقتذاك متفوقاً فى السلاح ، وفى الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التى وقفت فى صف البروتستانت هى قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم ، فإذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها فى شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحدق بالولايات البابوية وتبتلعها ، وينتهى بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيوش البابوية ، التى كانت تحارب مع شارل ، بالتخلى عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر فى اغتباط ، ووجد البابا نفسه يطرب كأى هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون فى ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة ، فزحف نحو الشمال ، والتقى بقوات الأمير المختار المنهكة فى ميلبرج ، على مدينة مايسين ، وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ ابريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل الذكى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا سقطت عاصمة البروتستانتية الألمانية فى أيدى الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقد فى هدوء تحت صفائح بارزة فى كنيسة القصر .

وأقنع موريس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسى بالتسليم ووعداه بأن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظفر ، إذ كان هنرى الثامن قد مات فى يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان فى مجلس نيابى آخر فى أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاوموا جهود شارل لدعم انتصاره العسكرى ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضى عن مقتل بيرلويجى فارنيزى ، الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ، وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء ، وانتزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملاك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة فى أن يصدر أحكاماً ، فى مثل هذه الأمور . وتهامس الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بمدرعة إمبراطويته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد موريس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه فى فيتنبرج يعد بروتستانتياً ومنتصراً ، ومكروهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المغلوبين على أمرهم ، وكانت خيانته قد سممت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضمّ سراً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبورد (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطرد شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتز وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلا بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كارنثيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوربا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فرديناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجلس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محببة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالخيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرخت ألسيبياديس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته فى ألمانيا ، تحول نحو الغرب ليجدد صراعه مع فرسا . ورأس فرديناند ، متذرعاً بالصبر ، المجلس النيابى التاريخى فى أوجسبورج (٥ فبراير — ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذى منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمى ، الذى ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذى لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التى فاز بها الملوك فى فرسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية فى المجلس النيابى ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم فى القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت فى إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطوس ، الذى خلف موريس فى ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستايت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو فى خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له فى حمل اللقب الإمبراطورى . وخشى الكثالكة مطمع هذا الإسبانى القاسى فى حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع فى ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده فى أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت فى المؤتمر الانتخابى .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شىء : يجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة عقيدتهم فى كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك فى الأرض التى تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء إجراءات تصفية أملاك الكنيسة فى الحاضر والمستقبل على السواء(٥٨) . وتوصل فرديناند وأوغسطوس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص فى هذه الكلمات الأربع المشهورة : **Cuius regio eius religio** ، وهى تجسم الضعف الروحى الذى انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفى داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد فى دولته ، وكل من لا يحب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى جانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ ، الذى أيده الإصلاح الدينى فى فتوة ثورته — الحق فى الحكم الخاص — رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السلطة العقيدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى الرأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العقيدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ، وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلا ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحقد والشقاق اللذين كانا يمزقان ألمانيا ، وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله(٥٩) ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشقين بدلا من أن يحرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصورة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحقيقى فى حرية العبادة ، ولكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ، مثل هنرى الثامن ملك انجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يحددون للناس العقيدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراستى — وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة — قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجنوا ثمار هذا النصر — سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ، ولكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ، بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى (١٥٢٤ - ٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة الدينية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التى كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت فى عام ١٨٠٦ ، وإنما ماتت فى عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية ، مثل الإمبراطورية ، فى غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور ، يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن — بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً ، فقد صار الأمراء أحراراً فى أن يتدخلوا فى الشئون البلدية ، وتضاءل استقلال المقاطعات . وفى غضون ذلك ابتلعت قوة هولندة النامية معظم التجارة ، التى كانت تسحب المنتجات الألمانية فى بحر الشمال ، عن طريق مصبات نهر الراين ، وضعف شأن المدن الجنوبية ، بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك فى أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانيـــة ، فى مدى مائتى عام بعد ذلك ، أن تتمتع مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التى سبقت عهد الإصلاح الدينى ودعمته . . .

وعاش ميلانكتون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج ، ولم يكن واثقاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه ؛ لا فى المفاوضات مع الكثالكة فحسب ، ولكن فى تحديد اللاهوت البروتستانتى . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بحتمية القدر كلية ، وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس(٦٠) ، وجاهد فى الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات ، وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدل مرير بين « الفيليبيين » — ميلانكتون وأتباعه — وبين اللوثريين المحافظين الذين انفجروا أساساً من ينا ، وأطلق هؤلاء على ميلانكتون لقب « المملوك المارق » و « خادم الشيطان » ، ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان(٦١) . وكان الأساتذة يعينون أو يفصلون ، ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق الطرفان على أن يعلنا حق الدولة فى قمع الهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون حذو لوثر فى إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهى للملوك(٦٢) ، ولكنه تمنى لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينيها حماية أرستقراطيات أوساط الناس ، كما فى زيورخ وشتراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع الأمراء . وفى أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمى الذى كان يتطلع إلى أن يكونه : « فلنتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنسانى وعن رحمة الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقى فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »(٦٣) . وعندما دنت منيته رحب بالموت ، باعتباره تحريراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن همجية « العصر السوفسطائى »(٦٤) . والحق أن التاريخ قد أخطأ فى اختياره للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصداقة والسلام ، وأجبرها على الدخول فى حرب ثورية لم تخلق لها .